

**حالتان متناقضتان (المذهبية والطائفية) مظاهرهما وعلل الانحراف**

**حالتان متناقضتان (المذهبية والطائفية)**

**مظاهرهما وعلل الانحراف**

**محمد علي التسخيري**

**الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية**

والصلوة على محمد وآلـه الطـاهـرـين وصـحبـه الـمـيـاـمـين وـبـعـدـ،

فإن الدارس للتاريخ العلاقة بين علماء المذاهب بلمح طاهرتين متناقضتين إحداهما هي (التنوع المذهبـي) وتسـتمـدـ جـذـورـهاـ منـ رـوـحـ الـاسـلـامـ وـعـقـلـانـيـتـهـ وـمـنـحـهـ حـرـيـةـ الـاجـتـهـادـ وـوـضـعـهـ قـوـاعـدـ الـحـوـارـ وـتـاكـيدـهـ علىـ الأـصـوـلـ الـعـامـةـ لـلـدـخـولـ فـيـ نـطـاقـ الـأـمـةـ وـكـذـلـكـ تـرـكـيزـهـ عـلـىـ رـوـحـ الـاخـوـةـ وـالـوـحـدةـ،

والثانية هي (الطائفـيـةـ) وهي تـتنـافـىـ معـ اـصـوـلـ الـاسـلـامـ وـقـوـاعـدـهـ.

امثلة من مظاهر التعامل المذهبـيـ الإـيجـابـيـ

ورغم احتمام الخلاف الفكري بين العلماء من اتباع المذاهب فاننا نلاحظ في كثير من الأحيان علاقات صفاء ومحبة وتمازج الى حد كبير بحيث يدرس بعضهم على بعض، ويدير<sup>٣</sup> البعض فقه المذاهب الأخرى، وينقل منهاجمهم الى مذهبهم ويطلب بعضهم الإجازة من البعض الآخر. وهناك مجموعة رائعة من كتب الفقه المقارن، ونقل رائع لآراء الآخرين.

ومما روی عن الشیخ المدقوق أنه كان يجوب البلدان ويجلس الى العلماء مهما كان مذهبهم ومنهم الحاکم ابو محمد بکر بن علی الحنفی الشاشی([1])

وابو محمد محمد بن ابی عبدالشاافعی الفرغانی([2])

وكان التعامل يتم عبر مجالات عديدة كالتعليم والدراسة وال الحوار والاستفادة المتبادلة من المصادر والبحوث ونقد الآراء والتزاور والجلسات التي تتم في المناسبات.

وفي مجال التعليم نجد كتب الفريقين متبادلة في الجامعات العلمية والحووزات تستفيد منها دون ان تسأل عن مذهب الكاتب ويشمل هذا مختلف العلوم كالنحو والفقه واصول الفقه والحديث بطرقه المختلفة: (السماح القراءة او العرض، والإجازة والمناولة والمكاتبة والوصية والوحدة).

ولقد كان شیخ الشیعة ببغداد (الشیخ المفید) يحاور العلماء من شتی المذاهب الاسلامیة ويجالسهم ([3]) وكان يحرص على التعليم - حيث يقول الذهبی: وإن كان ليدور على المکاتب وحوا نیت الحاکمة فيلمح الصبی الفطن فيذهب الى أبيه وأمه حتى يستأجره ثم يعلمه، وبذلك کثر تلامذته. ([4])

ولقد جاء كتاب الخلاف لشیخ الطائفة الطووسی «المتوفی سنة 460ھ» أروع مثال على ذلك وقد نقل بكل أمانة آراء المذاهب الأخرى وبالتفصیل ومنها آراء المذهب الشافعی الى الحد الذي طن السبکی معه انه من علماء المذهب الشافعی وذكره في طبقاتهم رغم اعترافه بأنه فقیہ الشیعة ومصنفهم ولكنه يقول عنه (كان ینتمی الى مذهب الشافعی). ([5])

وكان الشیخ یعتمد على ما روی في مصنفات أهل السنة اذا لم یجد ما یعتمد عليه في مصنفات الشیعة تبعاً لرواية عن الصادقة(ع) تقول: (إذا نزلت بكم حادثة لا تجدون حکمتها في ما روی عنا فانظروا الى ما رووه عن علی(ع) فاعملوا به). ([6])

وهذه ظاهرة رائعة نلمحها في بعض العلماء فتعبر لنا عن امتراج عجيب بين المذاهب، وقد عبروا عن ابن الفوطي (توفي 723) وهو صاحب (معجم الالقاب) وكان قيماً على أعظم مكتبة في عصره - عبروا عنه بأنه كان شيعياً حنانياً. كما ذكر الشيخ وهبة الزحيلي([7]) بان الطوفى المعروف بدفعه الشديد عن أصل (المصالح المرسلة) هو من غلاة الشيعة متبعاً في ذلك ابن رجب الذي عده من علمائهم، في حين أن الطوفى كان من علماء الحنابلة في القرن الثامن. ([8]) ودفعه عن هذا (الاصل) الذي يرفعه الشيعة، وعدم ذكره في فهارس علماء الشيعة يؤيدان كونه حنانياً.

وهذا محمد ابن أبي بكر السكاكيني العالم الشيعي المعروف كان كل مشايخه من أهل السنة. وقد خرّج له ابن الفخر علاء الدين ابن تيمية (المتوفى سنة 701) ما رواه عن شيوخه وناطره وشهد له بالتفوق وقال عنه : (هو من يتسبّع به السنّي ويتسنّن به الرافضي) وقد نسخ صحيح البخاري بيده، وهو صاحب القصيدة المعروفة ومطلعها :

أيا عشر الاسلام ذمي دينكم تحير دلّوه بأوضاع حجة

وهو صاحب (الطرائف في معرفة الطوائف) الذي مزقه السبكي وأحرقه.

ولو رجعنا الى كتب طبقات الحنابلة لرأينا التقارب العجيب لهذا المحبي كبير السنة في دمشق يمدح البهاء العاملی عالم الشيعة المعروف فيقول عنه (كما في خلاصة الأثر) : وهو أحق من كل حقيق بذكر أخباره ونشر مزاياه، واتحاف العالم بفضائله وبدائعه، وكان امة مستقلة في الأخذ بأطراف العلوم والتطلع بدقة الفنون، وما أطن الزمان سمح بمثله ولا جاد بمنه وبالجملة فلم تشفف الاسماع بأعجب من أخباره.

وقد ذكر الخطيب البغدادي أن سيرة سلف السنة هو الأخذ بروايات الثقات من الشيعة. ([9])

ومن العروف ان الشيخ الطوسي كان له مشايخ من أهل السنة ومنهم: ابو الحسن بن سوار المغربي،

ومحمد بن سنان

والقاضي ابو القاسم التنوخي([10]) وعده صاحب (الرياض) من الشيعة.

وعندما ندرس اوضاع حوزة الحلة التي ازدهرت بعد القضاء على حوزة بغداد من قبل السلاجقة نجد مجازاً رحباً للتسامح.

فهذا الشيخ ابن ادريس يدرس على مجموعة من علماء اهل السنة([11])، وهذا المحقق الحلي يؤلف كتاب (المعتبر) ويدرك فيه آراء المذاهب بل ويستخدم نفس اسلوبهم في الاستدلال، ثم نجد تلميذه العلامة الحلي المؤلف الكبير يستجيز الكثير من علمائهم ويعتبر عصره من أروع عصور التعامل الایجابي، وهو يقول في مقدمة كتابه (منتهى المطلب) أنه يذكر مذاهب المخالفين مع حجتهم على وجه التحقيق. ([12]) قوله اساتذة من علماء اهل السنة ذكرها في مقدمة كتابه (ارشاد الأذهان).

هذا ويعتبر الشهيد الأول من خريجي هذه المدرسة.

ويعتبر الشهيد الاول وهو محمد بن جمال الدين مكي العاملي الجزيوني، من علماء القرن الثامن، والشهيد الثاني وهو زين الدين بن علي العاملي الجباعي من علماء القرن العاشر، يعتبران مثلين رائعين من أمثلة الانفتاح والتمارج الفكري بين العلماء رغم أنهما كانوا نموذجين بارزين من أمثلة ما يؤدي إليه التطرف المذهبى من نتائج فجيعة.

فهذا الشهيد الاول يعيش مع علماء عصره، وكان مجلسه لا «يخلو غالباً» من علماء الجمهور لخلطته بهم وصحبته لهم»([13])، وقد قال في بعض اجازاته (أنه يروي عن نحو أربعين شيخاً منهم) ([14]) وهي اجازته لابن الخازن حيث جاء فيها (فاني أروي عن نحو اربعين شيخاً من علمائهم بمكة والمدينة ودار السلام بغداد ومصر ودمشق وبيت المقدس، ومقام الخليل إبراهيم عليه السلام فرويت صحيح البخاري عن جماعة كثيرة بسندهم إلى البخاري، وكذا صحيح مسلم ومسند أبي داود وجامع الترمذى... إلى غير ذلك مما لو ذكرته لطال الخطب، وقرأت الشاطبية على جماعة منهم قاضي قضاة مصر.. بن جماعة). ([15]) والجميل أن نجد شمس الأئمة الكرmani الشافعى - وهو أحد شيوخه يصفه بـ (المولى الأعظم الأعلم إمام الأئمة صاحب الفضلين مجمع المناقب...) ([16])

وكان (ره) كما يقول المرحوم صاحب الريامن: «يشتغل بتدریس كتب المخالفين ويقرئهم». ([17])

وكان يرى أنه لو كانت هناك صلاتان للجماعة أحدهما للشيعة والأخرى للسنة فان حضور الثانية افضل لأنه روي عنهم(ع) ([18]) من صلى معهم في الصف الأول كان كمن صلى خلف رسول الله صلى الله عليه وآلله فيه»،

قال: ويتأكد مع المجاورة. ([19])

وهذا الشهيد الثاني كان يذكر الصحابة بكل احترام فهو يقول: «ورجعت الى وطني الاول بعد قضاء الواجب من الحج والعمرة والتمنت بزيارة النبي وآلـه واصحـاه صـلوات الله عـلـيـهـمـ...» ([20]).

وقد اجتمع الى جملة من علماء السنة؛ ففي سفره الى مصر اجتمع مع «الشيخ الفاضل شمس الدين بن طولون الدمشقي وقرأ عليه جملة من الصحيحين في الصالحة بالمدرسة السليمية واجيز منه بروايتها... ثم سافر الى بيت المقدس في ذي الحجة (948هـ) واجتمع بالشيخ شمس الدين بن أبي اللطيف المقدسي وقرأ عليه بعض صحيح البخاري وبعض صحيح مسلم وأجازه إجازة عامة ثم رجع الى وطنه واشتغل بمطالعة العلوم ومذاكريته مستفرغاً وسعه وفي سنة 952هـ سافر الى الروم ودخل القدسية في 17 ربيع الاول ولم يجتمع مع احد من الأعيان الى ثمانية عشر يوماً وكتب في خلالها رسالة في عشرة مباحث من عشرة علوم وأوصلها الى قاضي العسكر محمد بن محمد بن قاضي زاده الرومي فووّقت منه موقعاً حسناً وكان رجلاً فاضلاً واتفق بينهما مباحثات في مسائل كثيرة... واجتمع فيها بالسيد عبدالرحيم العباسي صاحب معاهد التنصيص وأخذ منه شطراً... وأقام ببعליך يدرس في المذاهب الخمسة واشتهر أمره وصار مرجع الأنام ومفتى كل فرقه بما يوافق مذهبها...» ([21]) ورحل الى مصر وقرأ بها على ستة عشر رجلاً من أكابر علمائهم وقد ذكرهم مفصلاً، ويبدو أنه استجازهم وروى كتبهم ويقول صاحب رياض العلماء «ويظهر منه ومن إجازة الشيخ حسن وإجازات والده أنه قرأ على جماعة كثيرين جداً من علماء العامة، وقرأ عندهم كثيراً من كتبهم في الفقه والحديث والصول وغير ذلك، وروى جميع كتبهم وكذلك فعل الشهيد الأول والعلامة». ([22])

وذكر هو بعض هؤلاء:

من قبيل الشيخ زين الدين الجرمي المالكي

والشيخ ناصر الدين اللقاني

والشيخ ناصر الدين الطبلاوي الشافعى

والشيخ شمس الدين محمد بن أبي النحاس

وقال ابن العودي تلميذه: كثيراً ما كان ينعت هذا الشيخ يعني ابن أبي النحاس بالصلاح وحسن

الأخلاق والتواضع. ([23])

والحديث مفصل في هذا المجال.

وكان هذا المسلك لم يرق لبعض العلماء وخصوصا للاخباريين منهم فابدوا عدم رضاهم به ([24]) وقد اتهمه البعض بالميل إلى التسني. ([25])

وربما جاء الاتهام لأنه (رحمه الله) قام بعمل فريد إذ اعتمد منهج أهل السنة في علم الدرایة وطبقه في المجال الشيعي؛ يقول صاحب الرياض: «ثم اعلم أن الشيخ زين الدين هذا هو أول من نقل علم الدرایة من كتب العامة وطريقتهم إلى كتب الخاصة، وألف فيه الرسالة المشهورة ثم شرحها كما صرح به جماعة من تأخر عنه، ويلوح من كتب الأصحاب أيضاً، ثم الف بعده تلميذه الشيخ حسين بن عبدالصمد الحارثي وبعده ولده الشيخ البهائي وهكذا...» ([26])

وهنا يقول العلامة الامين: «والعلامة والشهيدان أجل قدراً من أن يقلدوا أحداً في مثل هذه المسائل أو تقدوهم قراءة كتب غيرهم إلى اتباع ما فيها بدون برهان وهم رؤساء المذهب ومؤسسوا قواعده وبهم اقتدى فيه أهله ومنهم أخذوه، وإنما أخذوا اصطلاحات العامة ووضعوها لأحاديثهم غيره على المذهب لما لم يروا مانعاً من ذلك، وكذلك فعلوا في أصول الفقه وفي الإجماع وغيره كما بين في محله وكذلك في فن الدرایة وغيره «وكيف يكون عدم رضا الشيخ حسن بما فعلوا لهذه العلة وهو قد تبعهم وزاد عليهم». ([27])

وهكذا نجد التعامل الايجابي البناء بين القادة:

- احترام يصل إلى حد التكريم الرفيع.

- وعبارات المودة والمحبة سائدة رغم النقد العلمي أحياناً،

- وانبهار واحترام يفوق الوصف،

- وعلماء الفريقين يشرح بعضهم كتاب الآخر

- وإرجاع من امام إلى امام،

- وتدريس البعض وافتاؤه الناس بالمذهب الآخر،

- واعتراف بالفضل والعلم بأروع التعبير،

- وإلحاح على التعلم رغم الوضع السياسي الحرج،

- واستجارة البعض من البعض الآخر ورواية كتبه،

- وأخيراً عدم إلصار على الرأي، ورد للمنقول عنهم اذا لم يوافق الكتاب والسنة.

- وامتزاج الى حد عدم تبين المذهب لدى البعض،

- وحرية في الاجتهاد وقبول بالتعددية وانفتاح على الآخر،

- ونقل المنهج العلمي لدى الآخر الى علوم المذهب،

فهل يا ترى تقتضي العقلانية غير ذلك؟ وهل احتفظ اتباع الأئمة بمثل هذه الروح بعد ذلك؟!

وصايا إلى الاتباع

واراء هذا التعامل الجميل بين الأئمة نلاحظ الوصايا التي ترى منهم لاتبعاهم، كي يتعمدوا بنفس الروح التسامحية، ويتجاوزوا الخلافات الفرعية في العقيدة والتقييم التاريخي والفقه إلى الموقف المبدئي والتحاب ووحدة الموقف، والتعالي إلى المستويات المصلحية العليا. فلنلاحظ بعض النصوص كما يلي:

1- ذكر التاريخ ان عبداً بن احمد بن حنبل روى ان قوماً من الكرخيين ذكروا خلافة الخلفاء الراشدين (وربما تنازعوا فيما بينهم) فقال: الامام احمد ناهياً ايها عن هذه النزاعات الجانبية العقيمية:

«يا هؤلاء أكثرتم القول في علي والخلافة، والخلافة وعلي؛ إن الخلافة لم تزین علياً، بل علي زينها» ([28]).

2- وقد طرد الشيخ الحسين بن روح - أحد النواب الاربعة للامام الثاني عشر المهدى(ع) - خادماً له لأنه سمعه يهين معاوية ([29]).

3- واوصى الامام الصادق اصحابه فقال لهم: صلوا عشايركم، واسهروا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وادوا حقوقهم، فان الرجل منكم اذا ورع في دينه، وصدق الحديث وادى الامانة، وحسن خلقه مع الناس وقيل هذا جعفري، يسرني ذلك ويدخل علي منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر» ([30]).

4- روى ابن ابي يعفور قال: سمعت الصادق يقول: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع» ([31]).

5- تذكر لنا الروايات أنه جرى ذكر قوم عند الامام الصادق فقال بعض شيعته: انا لنبرأ منهم، انهم لا يقولون ما نقول، فقال الامام: «يتولوننا ولا يقولون ما يقولون، تبرأون منهم؟ فاجاب الراوى: نعم، قال: «هو ذا عندنا ماليس عندكم، فينبغي لنا ان نبرأ منكم» ([32]).

6- وعن الصادق: «من خلع جماعة المسلمين قدر شبر خلع رقبة الايمان من عنقه» ([33]).

7- وعن الباقر(ع) في قوله تعالى: (أو يلبسكم شيئاً)، قال: «وهو اختلاف في الدين وطعن بعضكم على بعض» ([34]).

8- وقال الصادق: «عليكم بالصلوة في المساجد، وحسن الجوار للناس، واقامة الشهادة، وحضور الجنائز، انه لابد لكم من الناس، ان احداً لا يستغني عن الناس في حياته، والناس لابد لبعضهم من بعض» ([35]).

9- معاوية بن وهب قال: قلت له (اي الصادق) كيف ينبغي ان نصنع فيما بيننا وبين قومنا، وبين خلطائنا من الناس، ومن ليسوا على أمرنا؟ فقال: «تنظرون إلى أنتمكم الذين تقتدون بهم فتصنعون ما يصنعون، فواه! إنهم ليعودون مرضاهم ويشهدون جنائزهم، ويقيمون الشهادة لهم وعليهم، ويؤدون الامانة

اللِّيَهُمْ» ([36]).

١٠- وقال الصادق(ع): «رحم الله عبداً اجترّ مودة الناس إلى نفسه فحدثهم بما يعرفون، وترك ما ينكرون»([37]).

11- وقال زين العابديز(ع) : «العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن العصبية ان يعين قومه على الظلم» ([38]).

وهكذا نجد الأئمة يؤكدون على العلاقات الحسنة، والتعامل الاحيادي، وعدم الغرق في نزاعات غير عملية، وعدم الاساءة والاهانة، والدخول في قلب العمل الاجتماعي، وعدم الاعتزال نتيجة الايمان برأي يخالف الأكثريه من الناس، والسعى للتأدب بأدب الأئمة، وعدم الغرور العلمي، وعدم جعل الاختلاف في الرأي سبيلاً للتداير، والدخول في جماعة المسلمين، واجتناب العصبية واجتنار حب الناس وامثال ذلك.

## من مظاهر الحالة الطائفية الاعقلانية

نعم لم تستمر تلك الحالة النيرة كثيراً، فسرعان ما ساد التعصب والانغلاق، وتقليد المجتهدين لغيرهم «حتى آل بهم التعصب إلى أن أحدهم إذا ورد عليه شيء من الكتاب والسنة على خلاف مذهبة يجتهد في دفعه بكل وسيلة من التأويلات البعيدة، نصرة لمذهبة ولقوله»([39]).

ونقل الفخر الرازى عن اكبر شيوخه انه قال: قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء، قرأت عليهم آيات  
كثيرة من كتاب الله في بعض مسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات فلم يقبلوها، ولم يلتفتوا إليها،  
وبقوا ينظرون الي كالمنتجب - يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع ان الرواية عن سلفنا وردت  
على خلافها- ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من اهل الدنيا»([40]).

وقد ذكر الشيخ أسد حيدر أقوالاً أخرى من هذا القبيل([41]). وربما كان اغلاق الاجتهاد وحصر المذاهب نتيجة وعما لا على المزید من ذلك.

ولم يقتصر الامر على هذا الحد، وانما انتقل إلى مرحلة نقل المصراع من مرحلة (الخطأ والمواب) إلى مستوى (الكفر والإيمان)، الأمر الذي نقل الخلاف إلى الجماهير العربية، وتسبيب في كوارث يشيب لها

الوليد.

واشتد الهجوم على العلوم العقلية والمعاطفين بها سواء بين الشيعة ([42]). او السنة ([43]).

وراحت التهم تطال المذاهب والأراء فتصفها بالهالكة، وانها مجوس الامة وامثال ذلك، وزاد الخلاف على الفرعيات والانشغال بها وهكذا ([44]).

وزاد تدخل الحكم (وكانت البلاد قد تحولت إلى اقطاعيات كبيرة) الطين بلة (ومع كل جائحة من عداوة وغضب، اسرفت تهم النبذ والتحريم والتکفير والرمي بالباطل ضد الآخر مقدمة للقتل والحرق الممتلكات واتلاف كتب أصحاب المذاهب ومؤلفات فقهائها ونشر الرعب والكرابية).

وفي تاريخ الجائحات تكررت همجية البطش مع كل سلطة جديدة مرة ضد الشيعة، ومرة ضد السنة... ([45]).

وراح الفرد يحاسب على مذهبها؛ فعندما بنى السلاجقة المدرسة النطامية في قبال بناء الازهر من قبل الفاطميين اشترطوا ان يكون المدرسوون والتلامذة شافعيين ولذا منعوا الفصيحي الاسترآبادي وهو تلميذ عبدالقاهر الجرجاني من التدريس رغم علمه الجم بالعربية ([46]) وأصدر شهاب الاسلام عبدالرزاق رئيس المدرسة النطامية بنيسا بور امراً بقتل الفتال النيسابوري صاحب (روضۃ الوعظین).

وعند استعراض عوامل جرأة التتار على مهاجمة المسلمين نجد أن النزاع بين الدولة الخوارزمية والدولة العباسية يشكل عاملاً مهماً بالاضافة لدور المصراع المذهبی الرهيب؛ يقول المؤرخ ابن الحید: «فانهم (اي التتار) نزلوا عليها (اي على اصفهان) مراراً في سنة سبع وعشرين وستمائة وحاربهم اهلها وقتل من الفريقين مقتلة ولم يبلغوا منها غرضاً».

حتى اختلف اهل اصفهان في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وهم طائفتان حنفية وشافعية وبينهم حروب متصلة وعصبية طاهرة.

فخرج قوم من اصحاب الشافعی الى من يحاورهم ويتأخّمهم من ممالك التتار فقالوا لهم: اقصدوا هذا البلد حتى نسلّمه اليكم.. فنزلوا على اصفهان في سنة ثلاط وثلاثين (وستمائة) المذكورة وحصرواها.

فاختلف سيفا الشافعية والحنفية في المدينة حتى قتل كثير منهم وفتحت المدينة؛ فتحها الشافعية على عهد بينهم وبين التتار أن يقتلوها الحنفية ويعفووا عن الشافعية، فلما دخلوا البلد بدأوا بالشافعية فقتلواهم قتلاً ذريعاً، ولم يقفوا مع العهد الذي عهدوه لهم ثم قتلوا الحنفية، ثم قتلوا سائر الناس وسبوا النساء وشقوا بطون الرجال ونهبوا الأموال وصادروا الأغنياء ثم أضرموا النار فاحرقوا اصحابهان حتى صارت تلولاً من الرماد([47]) وهكذا دامت هذه النزاعات حتى ادت الى سقوط بغداد بعد زمن قصير.

وهذه النزاعات تقودنا الى تذكر نزاعات طائفية أخرى ادت الى تدخل الصليبيين الذين صنعوا العجائب والفواجع في العالم الاسلامي.

يقول احد المؤرخين الغربيين لهذه الحروب: «على ان المضعف لم يلحق سوريا فحسب بسبب ما حدث من انفالها عن جسم الامبراطورية السلجوقية، بل أيضاً بسبب ما انتابها من انقسامات في الداخل، وما تعرضت له من هجمات الخليفة الفاطمي بمصر من الخارج. وفي سنة 1095، تولى الاخوان، رضوان ودقاق، حكم حلب ودمشق على الترتيب، غير ان الحرب لم تلبث ان شبت بينهما، واشترك ياغي سيان امير انطاكيه فيما وقع بينهما من المنازعات، ولم يتوقف رضوان وياغي سيان عن مهاجمة دقاق، الا حين بلغتهما الانباء باقتراب الصليبيين، فاسرع ياغي سيان إلى انطاكيه، في خريف سنة 1097.

وفي تلك الاثناء لم يتowan الفاطميون في الافادة من هذه المنازعات. إذ ان انشقاقاً دينياً كبيراً، كان يفصل الخليفة الفاطمي في القاهرة، وزعيم المذهب الشيعي، عن الخليفة العباسي ببغداد، وزعيم المذهب السنوي. وهذا الاختلاف يجوز مقارنته، بما كان بين الكنسيتين اليونانية واللاتينية من نزاع. بل انه يفوقه بما غالب عليه من طابع الاختلاف السياسي. وكيفما كان الأمر، فان هذا الاختلاف ادى إلى عرقلة حركة المسلمين مثلما ادى ما بين الكسيوس واللاتين من الحسد والحدق، إلى عرقلة حركة الحرب الصليبية. وادرك الامراء الصليبيون تمام الادراك، الفجوة التي تفصل بين خليفة القاهرة عن الامراء السنويين في سوريا، وسعوا عن طريق مبعوثيهم إلى ان يتصلوا بخليفة القاهرة، املأ في ان يطغروا، بفضل مساعدته، ببيت المقدس، التي حكمها وقتذاك نياية عن الترك سقمان ابن الامير ارتق([48]). غير ان الخليفة (الفاطمي) رأى ان ينفرد بالعمل لنفسه، واستغل ما وقع بين امراء سوريا من حروب، وما اثاره زحف الصليبيين من الخوف والرعب، فاستولى على بيت المقدس (اغسطس سنة 1098) على الرغم من ان رعماء الحملة الصليبية لم يحرزوا شيئاً من النجاح في استغلال ما وقع من منازعات بين المسلمين على النحو الذي يتغونه، فالواقع ان ما اصابوه من النجاح، انما يرجع إلى حد كبير إلى هذه المنازعات»([49]).

وكذلك لنا أن نقرأ قول ابن خلدون عن عهد المستعصم باه «وكان الفتنة ببغداد لاتزال متصلة بين الشيعة واهل السنة، وبين الحنابلة وسائر أهل المذاهب، وبين العيارين والدعار والمفسدين» ([50])

كما لنا ان نتذكر ان الصراع بين الصفوين والعبانيين - وكل منهما يتمترس خلف خلفية مذهبية - دام اربعه قرون واورث الأمة خراباً ودماراً، واضعفها امام عدوها الغربي.

هناك نص للشيخ الطوفي من أئمة الحنابلة ذكره للاستدلال على مبدأ (المصالح المرسلة) مقدماً اي انه على النصوص والاجماع، لأنه رأى ان النصوص متعارضة، والاجتهادات متضاربة، والاحاديث الموضوعة كثيرة. وفي هذا السياق يذكر بعض انماط الصراع في تلك العصور فيقول:

«ان المالكية استقلت في المغرب، والحنفية بالشرق، فلا يقار احد المذهبين احداً من غيره في بلاده الا على وجه ما. وحتى بلغنا أن اهل جيلان من الحنابلة اذا دخل اليهم حنفي قتلوا، وجعلوا ماله شيئاً، حكمهم في الكفار، وحتى بلغنا أن بعض بلاد ما وراء النهر من بلاد الحنفية كان فيه مسجد واحد للشافعية، وكان والي البلد يخرج كل يوم لصلاة الصبح فيرى ذلك المسجد في يقول: أما آن لهذه الكنيسة أن تغلق؟ فلم يزل كذلك، حتى أصبح يوماً وقد سد باب ذلك المسجد بالطين واللبن فاعجب الوالي ذلك» ([51]).

وال تاريخ يحدتنا عن صور اخرى معبرة عن الحالة المزرية من التعامل الطائفى:

من قبيل:

- هجوم الغوغاء على بيت الشيخ الطوسي وحرق مكتبه عام 449. ([52])

- والهجوم على مساجد الشيعة عام 483 واتلاف الكتب فيها. ([53])

- وحادثة منع دفن ابن جرير الطبّري واتهامه بالحاد مشهورة

- والاتهامات وانماط التكفير تزخر بها كتب التاريخ

والروايات الموضعية التي تسفه المذاهب كثيرة.

### عوامل الانحراف:

وبنطورة عامة نستطيع القول ان اهم العوامل التي نقلت الحالة المذهبية الى الحالة الطائفية هي:

أولاًً: تآمر أعداء الأمة لخلق الظروف الملائمة لتمزيقها بشتى الأساليب من الدس والوضع والتحرير وخلق الفتنة وهو تآمر مستمر على مر العصور ومنذ صدر الاسلام وحتى اليوم إذ نلاحظ الاستعمار الغربي يعمل خلال فترات الاحتلال وخصوصاً في الفترة التي احتل فيها العالم الاسلامي كله تقريباً، وقضى على آخر دولة اسلامية شمولية في الرابع الاول من القرن الميلادي العشرين، لاحظنا انه اعتمد سياسة ثلاثة تستهدف:

1 - ابقاء الامة على تخلفها العلمي والاقتصادي والثقافي والتعليمي وغير ذلك.

2 - اشاعة الحالة العلمانية الغربية على الروح الاسلامية في العالم الاسلامي الى جانب تحريك النزعات القومية والعنصرية ولكن سرعان ما فشل مشروعه مما دعى بعض الكتاب المعاصرین لتسميته بـ«النصر سريع الزوال للعلمانية (1920 - 1970)»

3 - تمزيق العالم الاسلامي الى دول وشعوب متفرقة، وتحريك العنونات المذهبية الجغرافية والقومية والعنصرية حتى التاريخية كل ذلك خوفاً من هاجس الوحدة الاسلامية الذي يجري الحديث عنه والتخوف منه باستمرار من قبل القيادة والمفكرين والكتاب الغربيين ويتم التنظير لمصراع دائم مع العالم الاسلامي على اساسه تقول الكاتبة هانتر في مقدمة كتابها:

«قامت الرواية التي ألفها جون بوشان، وكان لايزال رائداً في إستخبارات الجيش البريطاني عام 1916، على فرضية قيام ثورة إسلامية، من شأنها، إذا ما اندلعت، أن تقلبجرى الحرب العالمية الأولى في غير مصلحة القوات الحليفة.

كتب بوشان في روايته، العباءة الخضراء Mantle Green The: «الاسلام عقيدة قتالية، إذ لا يزال ذلك الشيخ يقف في المحراب حاملاً القرآن باليد والسيف المشهور في اليد الأخرى. فإذا افترضنا أن هناك أملاً بالخلاص يعيد الروح حتى إلى الفلاحين في المناطق النائية ويدغدغ أحلامهم بالجنة فماذا سيحدث يا

صدقني؟ ستفتح جهنم أبوابها في هذه الأرجاء عما قريب. لدى تقارير من العلماء في كل مكان؛ صغار التجار في جنوب روسيا، وتجار الأحصنة في أفغانستان والتجار التركمان، والحجاج في الطريق إلى مكة، والأشراف في شمال أفريقيا، ولا بسي جلود الغنم من المغول، والفقراء الهنود والتجار اليونانيين في الخليج، فضلاً عن القناصل المحترمين الذين يستخدمون الشيفرة. هؤلاء جميعاً يجمعون في رواياتهم التي يرسلونها إلى على الأمر نفسه، أن الشرق في إنتظار إشارة إلهية».

بعد ذلك بنحو ثلاثة أرباع القرن، عبر المعلم السياسي الأميركي، تشارلز كراوثير، عن مخاوف مماثلة عندما قال إن الولايات المتحدة تواجه خطرين جيوسياسيين محتملين، يتأتى أحدهما من المنطقة نفسها التي ذكرها جون بوشان في روايته، فهو يتخد «شكل عالم إسلامي متعدد تحت راية أصولية على النطاق الایرانی تخوض صراعاً وجودياً ضد الغرب الكافر». ([54])

وهي من أهم النقاط التي ركز عليها المرحوم السيد جمال الدين في خطبه العامة لتحقيق نهضة إسلامية كبيرة.

وها نحن نشهد دور اليد الأجنبية الممتدة لتحرك النزاعات الطائفية في باكستان والعراق وأفغانستان ولبنان وسائر البلاد التي يتعايش فيها اتباع المذاهب. وربما استخدمت وسائل الإعلام والاقلام واللسنة الماجورة لتحقيق الهدف.

ثانياً: المصالح الشخصية لبعض الزعماء والحكام.

وهو أمر شهدناه في عصور الظلام الماضية، ونشهده اليوم أيضاً حيث يستغل البعض نفوذه ليثير البسطاء بل ربما بعض المنتسبين لاهل العلم لتحرير الإن و النزاعات الطائفية.

يقول أحد الكتاب المؤرخين واصفاً بعض حروب الطوائف بتحريك من السلطات الحاكمة:

«وكانت لا تمر سنة دون عنف بين ما وصف بفرق السنة وفرق الشيعة في سائر ارجاء المنطقة العربية الاسلامية فقد تولى الترك بنفسهم عام 249هـ عمليات القمع الطائفي ضد الشيعة... وكان اكثر الضحايا من منطقة (الشاكريه) ببغداد و نتيجتها هوجم السجن المركزي واحرق احد الجسرین الواسطيين بين جانبي الكرخ والرصافة».

وبستمر في الحديث عن دور حكومات الطوائف في تحريك الفتنة في مصر، وعن الاقتتال الطائفي بعد قيام حركة الزنج في سواد جنوب العراق، وامتداد النزاع إلى المدينة المنورة والى طبرستان، وتواصلت إلى شمال إفريقيا وهكذا. ([55])

وهناك كتب كثيرة تتحدث عن هذه الظاهرة كمقدمة ابن خلدون وغيرها.

ويكفي أن نذكر بدور النزاع العثماني الصفوی في خلق الفتنة الطائفية الداخلية واضعاف الامة الاسلامية مما جر وبالتالي إلى ان تفقد شوكتها وعزتها امام التحديات.

فلقد سيطرت الدولة العثمانية (1280 - 1924م) على الشام وأجزاء من العراق اضافة إلى مناطق في شمال إفريقيا، وسيطرت الدولة الصفویة (1506 - 1734م) على ایران. وراحتا تتناقضان وتوكلان هو يتهمما المذهبية.

ما أفرز نزاعاً طائفياً مقيتاً سببه نزاع المصالح ونهم الغزارة والقبائل والمستبدین لالمذاهب، وشهدنا استعرار موجة التکفير والقتل وإهانة المقدسات في كلا الطرفين.

ونحن إذ نشير إلى هذا النزاع لاننكر الخدمات التي قدمتها للحضارة الاسلامية ولكننا ننعي عليهمما استخدام النزعات المذهبية لأغراض سياسية.

وإذا كنا ننكر أي اکراه أو عنف لاجبار على تغيير المذهب فاننا ننكره على الطرفين معا وبمستوى واحد.

### ثالثاً: التکفير

وتعد هذه الظاهرة من اهم العقبات بوجه التقریب. ورغم ان الاسلام وضع تماماً الحدود الفاصلة بين الكفر والایمان، وحددها بدقة فان هذه الحالة الغریبة حدثت بقوه.

فعن عبادة بن الصامت قال رسول الله ﷺ (ص):

من شهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله وان عيسى عبد الله ورسوله وكلمته

القاها الى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنّة على ما كان من العمل.

وفي رواية ادخله الله من ابواب الجنّة الثمانية أيها شاء وروى الشیخان والترمذی: من شهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله حرم الله عليه النار. ([56])

وروى سماحة عن الامام الصادق (ع) قوله:

الاسلام شهادة ان لا اله الا الله والتصديق برسول الله، به حقت الدماء، وعليه جرت المناحك والمواريث، وعلى ظاهره جماعة الناس. ([57])

وربى القرآن الكريم الرسول الكريم(ص) اتباعه على التعامل العقلاني وال الحوار المنطقي والقبول بالتجددية الاجتهادية اذا كانت على اسس شرعية منضبطة.

ا لا ان هذه الطاهرة حدثت في ظل ظروف عصبية في مطلع الأمر كما في قضية الخوارج.

وانني اعتقد أن أهم ما قاد لهذه الطاهرة هو ما يمكن تسميته بمؤاخذة الآخر بلوازم كلامه رغم ان هذا الآخر لا يؤمن بهذه الملازمة مطلقاً.

فقد ذكروا انه شك في نفسه حين قال للحكمين:

«انظرا فان كان معاوية احق بها فأثبتناه، وان كنت اولى بها فاثبنا نی» فاذا هو شك في نفسه ولم يدر أهو أحق ام معاوية فنحن فيه أشد شكـا».

ورد الامام عليهم بقوله: «فإن ذلك لم يكن شكـاً مني، ولكن انصفت في القول، قال الله تعالى: «وانا أو ياكم لعلى هدى او في ضلال مبين».

ولم يكن ذلك شكـاً وقد علم الله أن نبيه على الحق»([58])

وبعد عصر الأئمة دبت هذه الحالة بوتيرة أوسع وذلك كما لاحظناه في الاختلاف حول (زيادة الصفات على الذات الالهية) و(التحسين والتقبیح العقليین) حيث رأى الطرفان المتنازعن ان الطرف الآخر يقوده رايه الى الكفر وهكذا نجد هذه الطاهرة في قضايا كثيرة من قبيل (التوسل) و(الشفاعة) و(البداء) وحتى في مثل (الاستحسان) و(القياس) و(المصالح المرسلة) وغيرها. في حين لواحتكم الجميع الى الحوار المنطقى لاكتشفو على الاقل لدى الطرف الآخر ما يبرر له الایمان بهذه القضية او تلك وربما اكتشفوا ان النزاع لفطی لحقيقة له.

وزاد الجهل والتعصب الطين بلة حيث يدخل في عملية الفتوى من ليس أهلا لها فيفتی بغير ما انزل الله. وهذا ما شهدناه بكل وضوح في الحركات التكفيرية في عصرنا مما ادى الى سفك الدماء البريئة على نطاق واسع باسم الدفاع عن الدين والامة وهما من هذه الحالة براء.

رابعاً: التشكيك في نوايا الداخلين في الحوار فانه لا يحقق الجو الهداء المطلوب، ويدفع لنوع من التهرب او المماطلة او تلمس العثرات مما يمنع من تحقق النتيجة المطلوبة. وهذا ما شهدنا نظيره في عمليات الحوار بين اتباع الاديان نتيجة ما يحمله كل طرف من تراكمات ذهنية عن الآخر فالطرف المسيحي مثلا يحمل احقاده الصليبية وايحاءات المستشرقين بما يسمونه بـ(الهرطقة الاسلامية) وما يدور في نفسه من هوا جس الصحوة الاسلامية التي تنافس مشروعه في السيطرة، في حين يحمل الطرف الاسلامي سوابق ذهنية كبيرة عن خدمة التبشير المسيحي للاستعمار على مدى قرون.

ولكن العمل الجاد والتوجه للتعليمات الاسلامية الهداء والداعية لحسن الظن في الاخ المسلم يمنع من أن يلعب هذا العامل دوره في المنع من التقریب خصوصا اذا تم على مستوى العلماء العاملين الذين خبر بعضهم بعضا في مجالات العلم والاخلاص والعمل في سبيل الامة بمجموعها .

خامساً: التهویل والتضخيم واستحضار الماضي والتهجم على المقدسات وعدم احترام الآخر.

وكل واحد من هذه الامور يمكن ان يشكل بنفسه مانعاً من تحقق الحوار المطلوب وبالتالي الوصول الى التقریب، وقد وجدنا النصوص الاسلامية تتطاو في المنع من هذه الامور:

فقوله تعالى: «قل انما اعطيكم بواحدة أن تقوموا [ ] مثني وفرادي ثم تتفكرؤا ما يصاحبكم من جنة»([59]) يمنع من الحوار في الاجواء الانفعالية المصطنعة.

وقوله تعالى: «قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون»([60]) يمنع من الانشغال بالماضي ويفرض احترام الآخر وذلك ايضاً واضح في الآية التي تنهى حتى عن سب آلهة المشركين.

سادساً: اضف الى كل ذلك ان اختلاف مناهج الاستدلال وطرق الاستنباط يمنع من التقارب في النتائج فينبغي السعي الى ما يأتي:

1 - الفراغ من المفروضات المسبقة قبل بدء عملية الحوار

2 - الاتفاق على منهج واحد للاستنباط وليس هذا الاتفاق امراً صعباً.

3 - تحقيق محل الحوار بدقة لئلا ينظر كل طرف الى قضية ومفهوم لا ينطر اليه الطرف الآخر.

وهناك موانع أخرى من قبيل

1 - اعتبار القول الشاذ علامة على المذهب كله.

2 - اخذ تصورات المذهب من اقوال خصومه.

3 - دخول من ليس اهلاً في عملية الحوار

4 - اتباع الاساليب الملتوية للظهور بالآخر

وغير ذلك مما لا يسعنا المجال للتعرض له ولكن يجب حذفه حتى نصل الى التقرير المطلوب بل الصورة في عالمنا الملتهب.

[1] - معاني الأخبار للصدوق ص 43.

[2] - معاني الأخبار للصدوق ص 59.

[3] - التهذيب ج 17.

[4] - تاريخ الاسلام للذهبي ج 9 ص 228.

[5] - طبقات الشافعية الكبرى للشيخ تاج الدين تقي الدين السبكي ج 3 ص 51.

[6] - راجع عدة اصول ج 1 ص 139 وقاموس الرجال ج 1 ص 20.

[7] - في بحثه المقدم الى ندوة الفقه الاسلامي بمسقط (شعبان 1408هـ).

[8] - مصادر التشريع ص 80.

[9] - الكفاية في علم الرواية ص 125.

[10] - راجع (الاجازة الكبيرة) للعلامة الحلبي.

[11] - موسوعة ابن ادریس تحقيق السيد الخرسان ج 1 ص 53.

[12] - منتهي المطلب: المقدمة ص 4 طبعة مشهد.

[13] - اعيان الشيعة للسيد محسن العاملي ج 10 ص 62.

[14] - ز.م، وذكر ذلك في أمل الأمل ج 1 ص 103.

[15] - بحار الأنوار ج 107 ص 191.

[16] - ن.م ص 183.

[17] - رياض العلماء ج 5 ص 185.

[18] - الوسائل ج 5 ص 381.

[19] - الدروس الشرعية طبعة مجمع البحوث الإسلامية - مشهد ج 1 ص 163.

[20] - اعيان الشيعة ج 7 ص 150.

[21] - الكنى والألقاب ج 2 ص 382 - 383.

[22] - رياض العلماء ج، ص 365.

[23] - اعيان الشيعة ج 7 ص 149.

[24] - راجع مثلاً، أمل الأمل ج 1 ص 90 ورياض العلماء ج 2 ص 365 ومعجم رجال الحديث ج 7 ص 378.

[25] - كما ذكر ذلك المحدث الجزائري في كتابه (الجواهر الغوالي في شرح عوالي اللائي) نقاً عن بعض أولاد الشهيد الثاني «راجع مقال المحققين لكتاب (منية المرید) ص 43».

[26] - رياض العلماء ج 2 ص 365.

[27] - اعيان الشيعة ج 7 ص 157.

[28] - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ج 1 ص 109.

[29] - بحار الانوار، ج 51، ص 357.

[30] - عوالم الامام الصادق للبحراوي، ج 2، ص 635.

[31] - الكافي ، ج 2 ، ص 105.

[32] - وسائل الشيعة، ج 16 ، ص 160.

[33] - بحار الانوار، ج 85، ص 13.

[34] - تفسير الميزان، ج 7 ، ص 149.

[35] - وسائل الشيعة، ج 12 ، ص 6.

[36] - وسائل الشيعة، ج 12 ، ص 6.

[37] - وسائل الشيعة، ج 11 ، ص 471.

[38] - الكافي، ج 2 ، ص 308.

[39] - مختصر المؤمل لشهاب الدين ابي شامة ، ص 14.

[40] - التفسير الكبير، ج 16 ، ص 31 في تفسير الآية 31، من سورة التوبة .

[41] - الامام الصادق والمذاهب الاربعة طبعة مجمع اهل البيت، ج 3 ، ص 192 .

[42] - راجع كتاب (المعالم الجديدة لعلم الاصول) للامام السيد محمد باقر المصدر .

[43] - راجع مقال الاستاذ الطويل في كتاب قضية الفلسفة ، ص 211.

[44] - راجع كتاب (قصة الطوائف) للدكتور الانصاري، فصل الحقبة الطائفة، ص 185.

[45] - ن.م. ص 219.

[46] - معجم الادباء للحموي ج 15 ص 67.

[47] - شرح نهج البلاعة لابي الحديد ج 8 ص 237 طبعة بيروت.

[48] - حدث في وقت واحد المفاوضات والقتال اثناء الحرب الصليبية الأولى. وجرى ذلك أيضاً في الحرب الثالثة وال Herb السادسة. ونلحظ ما قام به العلمانيون من نشاط في توجيه سير الحرب الصليبية. فعلى الرغم من ان هذه الحرب قامت على أساس ديني، فانها اتخذت في سيرها صفة دنيوية. ومن الأمور المتناقضة ان حملة دينية اسهمت في نمو الحافر الدنيوي، وهيأت للعلمانيين ان يفلتوا من ذلك الميل نحو التيووقратية البابوية، وكان ذلك واضحاً في زمن بابوية جريجوري السادس.

أنظر حبشي: الحرب الصليبية الأولى. القاهرة 1958 ص 126 - 127.

William of Tyre Trans. Krey. 1943. Vo.l.pp.223-224 .

[49] - المؤرخ إرنست بارغر في كتابه (الحروب الصليبية) الفصل الثالث ترجمة الدكتور البار العريني وقد قدم له بمقدمة جيدة.

[50] - العبر وديوان المبتدأ والخبر ج 32 ص 536.

[51] - رسالة الطوفى، ص 116.

[52] - المنتظم لابن الجوزي ج 16 ص 16 سنة 449.

[53] - تاريخ الاسلام للذهبي ج 10 ص 471.

[54] - مستقبل الاسلام والغرب. شيرين هنتر تعریف زینب سوربا ص 111.

[55] – قصة الطوائف للدكتور فاضل الانصاري ص 233.

[56] – ذكرتها الصحاح في اول ما ذكرته من روايات وجمعها صاحب جمع الفوائد في مطلع كتابه.

[57] – الکافی، ج 2 ص 25.

[58] – الاحتجاج للعلامة الطبرسي ج 1 ص 444.

[59] – سباء 46.

[60] – سباء 25.